سُورَةُ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ • كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى • أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى • إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى • أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى • عَبْدًا إِذَا صَلَّى • أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى • أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى • أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى • أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى • كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ • نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ • فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ • سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ • كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ • ﴾

صدق الله العظيم

obeikandl.com

المشهور فى اسمها : « سورة العلق » ويذكرها بعض المفسرين ، كالطبرى باسم « سورة اقرأ » أو « اقرأ باسم ربك » وجاء بها « الرازى » فى تفسيره الكبير باسم « سورة القلم » وهذا الاسم يلتبس بالسورة بعدها[1] : « ن ، والقلم وما يسطُرون » واسمها فى تفسير الرازى « سورة ن » .

* * *

والمشهور كذلك أنها أول سورة نزلت من الوحى . ولم يشر « ابن إسحاق » فى (السيرة النبوية) إلى خلاف فى ذلك . ومثله « الطبرى » فى تفسيره . وفيها الحديث عن « السيدة عائشة أم المؤمنين » قالت : « كان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحى ، الرؤيا الصادقة ، كانت تجيء مثل فلَق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالىَ ذواتَ العدد قبل أن يرجع إلى أهله ، ثم يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها . حتى فَجَأه الحقُّ فأتاه فقال : يا محمد أنت رسول الله . . . ثم قال : اقرأ . قال الرسول ﷺ : فغطنى ثلاث مرات حتى بلغ منى الجهد ، فقال : اقرأ . قلت : ماذا أقرأ ؟ فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فقرأتها ، ثم انتهى وانصرف عنى فكأنما كُتبت فى قلبى كتاباً . فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : « يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل » . فرفعت رأسى إلى السماء أنظر ، ما أتقدم وما أتأخر ، فما زلت واقفاً حتى بعثت خديجةُ رسلَها فى طلبى فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى . وانصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة ، فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ، فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا لى ؟ ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت : أبشر يا ابنَ عمٍّ واثبت ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصِلُ الرحم وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق .

(١) على المشهور فى ترتيب النزول .

ثم انطلقتْ بى إلى ورقة بن نوفل بن أسد ، قالت : اسمع من ابن أخيك . فسألنى وأخبرته خبرى ، فقال : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتُكَذبنَّهْ ، ولتؤذَيُنَّهْ ولتُخرَجنَّهْ ولتُقاتَلُنَّهْ ! ليتنى أكون حيًّا حتى يخرجك قومك . قلت : أوَ مخرجيَّ هم ؟ قال : نعم ، إنه لم يجئْ رجل قط بما جئتَ به إلا عُودِى ، ولئن أدركنى يومك لأنصرنك نصراً مؤزراً . . .

ثم كان أول ما نزل علىّ من القرآن بعد اقرأ : ﴿ ن ، والقلم وما يسطرون . . . ﴾[1] .

* * *

ولكن هناك قولاً – فى الكشاف وتفسير الرازى – أن الفاتحة كانت أول سورة نزلت من الوحى ، وبعدها نزلت سورة العلق .

وفى قول آخر نقله الرازى ، أن الذى نزل من السورة أوَّلَ الوحى ، آياتُها الخمسُ الأولى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » إلى قوله تعالى : « علم الإنسان ما لم يعلم » . ثم نزلت البقية بعد أن أبلغ المصطفى رسالته ، وتصدى له من تصدى من طواغيت قريش بالتكذيب ، وأمر النبى ﷺ بضم هذه الآيات إلى أول السورة . لأن تأليف الآيات إنما كان بأمر الله تعالى[2] .

وجاء فى البحر المحيط :

« هذه السورة مكية ، وصدرها أول ما نزل من القرآن ، وذلك فى غار حراء على ماثبت فى صحيح البخارى وغيره ، وقول جابر : أول ما نزل المدثر ، وقول أبى ميسرة عمرو بن شرحبيل : أول ما نزل الفاتحة ، لا يصح » .

وسياق الآيات قد يرجح هذا القول بأن صدر سورة العلق ، أول ما نزل من

---

(١) الطبرى : جامع البيان ، ٣٠/١٦٢ وابن هشام : السيرة النبوية ، ١/٢٥٤ حلبى . والحديث فى الصحيحين من رواية : الزهرى عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها . وروى من طرق أخرى ، ولفظهم متقارب .

انظر (عيون الأثر ، للحافظ ابن سيد الناس : ١/٨٤ – ٨٥) .

(٢) التفسير الكبير للرازى : ٨ / ٤٣٧ المطبعة الشرفيه سنة ١٢٣٤ هـ ، وانظر معه : تفسير النيسابورى على هامش الطبرى : ٣٠/١٢٦ .

القرآن ، ثم لا يبدو مخالفاً لما فى تفسير الطبرى والسيرة النبوية ، حيث يقف الحديث فيهما عن أول ما نزل من الوحى ، عند الآية الخامسة : « علم الإنسان ما لم يعلم » .

* * *

« اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ » .

من عجب أن تكون كلمة « اقرأ » أول ما استهل به الوحى إلى النبى الأمى المبعوث فى الأميين رسولاً منهم ، وأن يكون « الكتاب » معجزة هذا النبى المصطفى لختام رسالات الدين منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، والعصر عصر بداوة ، والبيئة وثنية جافية لا عهد لها بمظاهر الحضارة المادية والفكرية التى ازدهرت فى بيئات أخرى كوادى النيل ، ووادى الرافدين . . .

ونحتاج هنا فى هذه السورة المبكرة من أول الوحى ، إلى تمثُّل ما كان لها من وقع فى نفوس الذين تلاها فيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام ، مستأنسين بما كانت البيئة العربية فى عصر النبوة تفهمه وتدركه ، بعيداً عما أضيف إلى هذا الفهمِ من مُحدَث التأويلات التى أضافتها عصور متأخرة .

واللافت أن الإمام الطبرى لم يجد حاجة إلى تأويل آية : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » لوضوح معناها . فليست القراءة بحيث تحتمل التأويل بغير المألوف من دلالتها على التلاوة . والعربية كانت تستعملها فى التلاوة من نص مكتوب أو غير مكتوب . كما عرفت الربَّ بدلالته على المالك والمعبود .

وإذ كانت الكلمة وحياً إلهيًّا ، فباسم ربه الذى خلق ، أُمِرَ المصطفى أن يقرأ . وقد كان لقبائل العرب الوثنية أربابها من أوثان وأصنام ، ومحمد كان قبل المبعث فى حيرة من أمره وأمر قومه ، يراهم على سفه وضلال ، وينكر عبادتهم لأرباب صنعوها بأيديهم من خشب وحجر وطين ، ثم نسوا أنهم صانعوها وكدسوها فى ساحة البيت العتيق ، وعكفوا عليها عابدين .

وطال به التأمل التماساً لما يهديه من حيرته ، وقد صدَّ عما يعبده قومه من أوثان صماء بلهاء ، ولم يجد ما يطمئن إليه لدى من عرفت الجزيرة من عصابات يهود التى

طرأت على شمال الحجاز فأنشبت مخالبها فى الأرض الطيبة ، ونسيت « موسى » وربه ، واتخذت من الذهب وثنا المعبود .

والنصارى – فى الشام ونجران – قد مزقتهم التفرقة المذهبية ، فبعضهم لبعض عدو ، وكل طائفة ترمى الأخرى بالكفر والضلال . . .

ومن بعيد كان لهب النار يسطع من معابد المجوس ، وقد أحاط بها القوم طائفين عابدين !

فى تلك الظلمة الغاشية ، كانت كلمة الوحى « اقرأ باسم ربك الذى خلق » للأُمىِّ المختلى فى حراء ، توجيهاً وهدايةً إلى الحق الذى طال التماسه إياه ، وإذاناً بانتهاء حيرته التى طالما أجهدته فى تأملاته ، وانبثاقاً لنور فجر جديد ينسخ ظلماتِ ليلٍ ادلهم وطال .

* * *

وقد يجدى أن ننقل عن الفخر الرازى أن فى قوله : « اقرأ باسم ربك » إشعاراً بأن كل قراءة للقرآن يجب أن تبدأ باسم الله . لكنا نتوقف حيال ما ذكره من أن فى قوله تعالى : « باسم ربك » بدلاً من : باسم الله ، أن الرب من صفات الفعل والله من أسماء الذات . . . فالأمر هنا يستوجب العبادة بصفات الفعل . . .

وأن فى كلمة ربك « ما يزيل فزع الرسول من الوحى . فكأنه قال : ربك هو الذى رباك فكيف يفزعك ؟ فأفاد هذا الحرف معنيين فى أحدهما : ربيتك فلزمك القضاء فلا تتكاسل . والثانى : قد ربيتك حين كنت علقاً فكيف أضيعك بعد أن صرت خلقاً نفيساً موحِّداً عارفاً بى ؟» .

وإنما حسبنا أن نلمح ما فى « ربك » من صلة بحال المصطفى وقومه قبل المبعث ، وطول حيرته التماساً للهدى والحق ، وطول خلوته المتأملة فى ملكوت السموات والأرض . وهذا هو نور الكلمة يشرق فيهديه إلى ربه الذى خلق ، الجدير بالعبادة دون هذه الأرباب المخلوقة التى عبدتها الوثنية العربية .

ولا وجه عندنا لما تعلق به بعض المفسرين من تأوُّل مفعول لـ « خلق » فى الآية الأولى ، بل ندعها على إطلاقها الذى يفيد معنى العموم ، ثم تتولى الآية بعدها

تخصيص هذا العام ، باللفت إلى خلق الإنسان ، من حيث كان الوحى القرآنى لهداية هذا الإنسان ، دون غيره من الكائنات .

كما لا نجد حاجة إلى الوقوف عندما قدره بعضهم – فيما نقل الرازى – من أن « فى قوله تعالى : الذى خلق ، من التمهيد لاعتراف عباد الأوثان به ، ما ليس فى قوله : الذى لا شريك له . لأنه لو بدأهم بهذه المواجهة لأبوا أن يقبلوا ذلك منه ، فقدَّم تعالى فى « الذى خلق » مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به ، فكأنه قال : واذكر لهم أنهم هم الذين خُلقوا من العلقة فلا يمكنهم إنكاره ، ثم قل : ولابد للفعل من فاعل ، فلا يمكنهم أن يضيفوا الخَلْقَ إلى الوثنِ لعلمهم بأنهم نحتوه . فبهذا التدريج يقرون بأنى المستحق للثناء »[١] .

وسياق الآيات صريح فى أنه تقرير لربوبية الخالق . وتخصيص خلق الإنسان بالذكر دون سائر المخلوقات ، لأن الإنسان هو المختص بالقراءة والعلم ، المنفرد بتبعة التكليف ، المخاطَب بكل ما سوف ينزل به الوحى من كلمات الله .

* * *

« خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ » .

من السلف من تأوله على أن المقصود به إينامس الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ربه الذى رعاه ورباه مذ كان علقاً . وآخرون منهم تأولوه على قصد التدرج بعباد الأوثان إلى الإقرار بخالقهم . على ما نقلنا من كلام الفخر الرازى .

وقال الزمخشرى إن فى الآية تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته[٢] . وقد نقله الرازى ، ثم أضاف إليه ، فى تأويل « علَّم بالقلم » : كون الإنسان من علقة وهى أخس الأشياء ، ثم صيرورته عالماً والعلم أشرف المراتب ، فكأنه تعالى يقول : انتقلتَ من أخس المراتب إلى أعلى المراتب ، فلابد لك من مُدبر مقدِّر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة[٣] .

---

(١) تفسير الرازى : ٨/٤٣٥ .

(٢) الكشاف : جـ ٤ سورة العلق

(٣) تفسير الرازى : ٨/٤٣٦ .

ولفت « أبو حيان » إلى أن ذكر « ربك » فى الآية الأولى ، إيناس للمصطفى وتعيين لربه ، لا ربٌّ غيرُه . ثم جاء بصفة الخالق ، وهو المنشئ للعالم ، لما كانت العرب تسمى الأصنام أرباباً ، فأتى بالصفة التى لا يمكن شِركة الأصنام فيها[١] .

وكل هذا مما يمكن أن يقال .

وليس هو ، على أى حال ، بأبعد مما ابتدعه مُحدَثون اتجهوا بهذه الآية إلى مجال البحث فى علم الأجنة ، والتمسوا المراجع الأجنبية لعلماء الفسيولوجيا والبيولوجيا ، لفهم آية نزلت على النبى الأمى فى قوم أميين لم يسمعوا قط ، ولا سمع عصرهم ، بعلم الأجنة . وغيرُ متصور أن يكون القرآن الكريم قدَّم لهم من آيات ربوبية الخالق وقدرته ، ما لا سبيل لأحد منهم إلى تصوُّره ، فضلاً عن فهمه وإدراكه .

وإنما فهموا من العلق ما تعرفه لغتهم وبيئتهم وعصرهم . والعربية قد استعملت العلق ماديًّا فى كل ما يعلق وينشب : كالدم ، والمحور الذى تعلق عليه البكرة ، وعلقت المرأة حملت . ومعنويًّا فى العلاقة تنشب بين اثنين حبًّا أو بغضاً ، وفى الصلة تربط بينهما .

ولم يكونوا فى حاجة إلى درس فى علم الأجنة أو مراجعة كتاب فى المكتبة الأمريكية التى ظهرت بعدهم بقرون ، ليفهموا آية خلق هذا الإنسان من علق فى أرحام الأمهات ، وهم الذين ألفوا استعمال : علقت المرأة ، بمعنى حملت .

واستعمال العلَق هنا ، جمع علقة ، إيذان بما ذهبنا إليه من إطلاق فى عموم لفظ الإنسان[٢] .

ولا يشير السياق إلى أن القصد من « خلق الإنسان من علق » توجيه المصطفى ومن يؤمنون برسالته إلى النظر فى علم الأجنة ، وإنما هى آية الله فى هذا الإنسان ، خلقه من علق ، وخصه بالعلم ، واحتمل أمانة التكليف ، فازدهاه الغرور وأطغاه الشعور بوهم الاستغناء عن خالقه ، فنسى أن إليه ، سبحانه ، الرُّجْعى والمصير . . .

---

(١) البحر المحيط : ٨/٤٩٢ .

(٢) سيأتى استقراء آيات الإنسان فى القرآن الكريم ، فى تفسيرنا لسورة العصر .

وهذه هى قصة الإنسان ، من المبدأ إلى المنتهى ، تلفت إليها سورة الوحى الأولى ، بإيجاز ، توطئة لما سوف يتتابع من آيات الوحى التى تزيد كل هذه الملامح المجملة تفصيلاً وبياناً .

فهذا الإنسان الذى خلقه الله من عَلَق ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، وإليه رُجعاه ، هو الإنسان الذى نزلت فى خلقه آياتهُ تعالى ، على ترتيب النزول :

« قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۝ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ »

(سورة عبس)

« فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ »

(سورة الطارق)

« أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْىِ الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ »

(سورة يس)

« أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً »

(سورة الكهف)

« يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً »

(سورة الحج)

« إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا »

(سورة الإنسان)

وما من آية فيها ، يؤذِنُ سياقُها بتوجيه إلى النظرِ فى علمِ الأجنة وعلم الأحياء والتشريح ، وإنما تأتى جميعاً فى الاستدلال لقدرة الذى خلق الإنسان من علق ، أو

من نطفة أو من تراب ، على النشأةِ الأخرى التى هى مدارُ الثوابِ والعقاب ، ومناطُ ما يُوَجهُ إليه كتاب الإسلام من تكليف وبشرى ووعيد .

* * *

« اَقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ » .

ذهب بعض المفسرين ، فيما نقل الفخر الرازى ، إلى أن « اقرأ » فى الآية الأولى تعنى : « اقرأ لنفسك . وهى فى هذه الآية بمعنى التبليغ . أو أن الأولى للتعلم ، والثانية للتعليم . أو أن الأولى : اقرأ فى صلاتك ، والثانية : اقرأ خارج صلاتك » .

وهى أقوال متقاربة ، وإن كان الأَوْلى أخذ السياق على ظاهره ، بما يفيد من تأكيدِ الأمرِ الإلهى للمصطفى بالقراءة . وإذ كان لا يدرى ماذا يقرأ ، فقد تولى الوحى بيانَه ، فليقرأ باسم ربه الذى خلق . . . وليقرأ وربُّه الأكرم .

والكرم فى العربية نقيض اللؤم ، ودلالتُه على العزة مألوفة فى استعماله لكرام الناس . والإكرام ضد الإهانة والإذلال .

ومن الكرم بمعنى العزة ، جاء الكريم فى القرآن وصفاً لذى الجلالة أو اسماً من أسمائه الحسنى ، ووصفاً لعرشه :

« فإن ربِّى غنىٌّ كريمٌ » .

« فتعالى اللهُ المَلِكُ الحقُّ لا إلٰهَ إلاَّ هوَ ربُّ العرشِ الكريم » .

كما جاء وصفاً لرسول ، وملك ، وكتاب ، وقرآن كريم . ووُعِد المتقون برزقٍ ، وأجرٍ ، ومدخلٍ ، ومقام كريم .

وجاء الكرام ، جمع كريم ، وصفاً لملائكة بررة ، كاتبين . وللمؤمنين فى سياق البشرى .

وفى سياق الوعيد والسخرية ، جاءت آية الدخان فى الأثيم :

« خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » – ٤٩ .

وفى التكريم والإكرام ، نقيضاً للتحقير والإذلال ، جاءت صيغة مُكَرَّمَة وصفاً لصحفِ الوحى ، والمكرمون وصفاً للملائكة ، ولضيفِ إبراهيم منهم ، ولأهل الجنة .

وجاء الفعل فى تكريم الله وإكرامه للمتقين ، وقوبل بالإهانة فى آية الحج :
« وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فما له من مُكْرِم » — ١٨ .

أما أفعل التفضيل ، فجاء مرةً مضافاً إلى ضمير المخاطَبين فى آية الحجرات :
« يأيها الناسُ إنا خلقناكم من ذَكَرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعَارَفوا ، إن أكرمَكم عند الله أتقاكم ، إن اللهَ عليم خبير » — ١٣ .

وانفردت آيةُ العلق بصيغة « الأكرم » معرفةً بِـ : ال ، بما يفيد اختصاصه تعالى بهذه الرتبة العليا على عموم إطلاقها .

دون تعلق بتأويل أكرميته تعالى ، وقد تأولها الزمخشرى بأنه : « الذى له الكمال فى زيادة كرمه على كل كرم ، يُنعم على عباده النعم التى لا تحصى ، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه ، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم ، فما لكرمِه غايةٌ ولا أمد »[1] .

وساق الفخر الرازى فى أكرميته تعالى وجوهاً أربعة :

• أنه تعالى لا يحلم وقت جناية الإنسان فحسب ، بل يزيد إحسانَه بعد الجناية . ونظَّر له بقول الشاعر :

متى زدتُ تقصيراً تزدْ لى تفضُّلا كأنىَ بالتقصيرِ أستوجبُ الفَضْلاَ

• أنك كريم يا محمد ، لكن ربك الأكرمُ .

• أنه تعالى له الابتداءُ فى كلِّ كرم وإحسان ، وكرمُه غيرُ مشوب بتقصير .

• يحتمل أن يكون فيه حثٌّ على القراءة أو على الإخلاص ، بمعنى : فهو يجازيك بكلِّ حرف مما تقرأ عَشْرًا . أو بمعنى : تجردْ لدعوةِ الخَلْقِ ولا تخف أحداً ، فأنا أكرم من أن آمرك بهذا التكليف الشاق ثم لا أنصرك .

ونلاحظ عليهم أن فى كل ما تأولوه ، تقييداً لصيغة الأكرم ، ينقلها إلى المفاضلة بين كريم وأكرم منه . والحق أن البيان القرآنى حين قيَّد أفعل التفضيل فى آية الحجرات بإضافتها إلى ضمير المخاطبين ، جعل أكرميتهم محدودة بنطاق الناس الذين خاطبهم فى

(١) الكشاف : جـ٤ . ومثله أو قريب منه ما فى (البحر المحيط لأبى حيان) : ٨/٤٩٢ .

الآية . واستأثر سبحانه بصيغة « الأكرم » على الإطلاق ونظيره الأعلى فى آيتى : « سَبِّح اسمَ ربك الأعلى » ، « إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » .

لافتاً إلى حِسٍّ العربية الأصيل حين تأتى بأفعل التفضيل معرفاً بأل ، وغير مميز ، فتفيد من العموم والإطلاق ما لا تفيده الصيغة نفسها من المفاضلة مقيدةً بمضاف إليه لا تتجاوزه أو مميزة بوجه تفاضل لا تعدوه[١] .

* * *

« ٱلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإنْسَان مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

العلمُ إدراك الشىء على حقيقته ، ونقيضُه الجهل .

وقد سبق استقراء آيات العلم فى القرآن الكريم ، فى تفسير آية « كلا سوف تعلمون » من سورة التكاثر[٢] .

والقلم أداةُ الكتابة . ومنه آية القلم : « ن ، والقلمِ وما يسطرون » .

فسره الطبرى فى آية العلق ، فقال : « علم الإنسان الخطَّ بالقلمِ ولم يكن يعلمه » .

وكذلك فسره الزمخشرى بعلم الكتابة ، واستطرد فذكر ما لهذا العلم من « المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إلا هو ، وما دُوّنت العلومُ ولا قُيدت الحِكَمُ ولا ضُبطت أخبارُ الأولين ومقالاتُهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هى لما استقامت أمورُ الدين والدنيا » . ونقله أبو حيان فى « البحر المحيط »[٣] .

وقريب منه ما ذكره الفخر الرازى فى شرفِ القلم وحكمة خلقه[٤] . وعقد « ابن قيم الجوزية » فى تفسيره لسورة القلم فصلاً مسهباً فى شرف القلم وفوائده ، ثم ذيله بفصل طريف فى منازل الأقلام على تفاوتِ رُتبتها من الشرف ، فجعلها اثنى عشر نوعاً :

---

(١) يأتى هنا بعد ، مزيد تدبر لصيغة الأعلى ، فى آية «إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى» من سورة الليل .

(٢) فى الجزء الأول من هذا التفسير البيانى — ط المعارف .

(٣) الجزء الثامن : ٤٩٢ .

(٤) تفسير الرازى : ٨/٤٣٦ وانظر معه تفسير النيسابورى على هامش الطبرى : ٣٠/١٢٥ .

أولها : وأعلاها وأجلها قدراً قلمُ القدَر السابق الذى كتب الله به مقاديرَ الخلائق .

ثانيها : قلمُ الوحى يُكتَب به وَحيُ اللهِ تعالى إلى رسله وأنبيائه .

ثالثها : قلم الفقهاء والمفتين . يتلوه على الترتيب التنازلى : قلمُ طبِّ الأبدان ، وقلم التوقيعِ عن الملوك والساسة ، وقلمُ الحساب تُضبَطُ به الأموالُ ، وقلم الحُكْم تثبت به الحقوقُ وتنفذ القضايا ، وقلمُ الشهادة تُحفظ به الحقوقُ وتُصان عن الإضاعة ، وقلمُ تعبير الرؤيا ووحى المنام ، وقلم التأريخ ، وقلمُ اللغة يشرح معانى ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، ثم القلم الجامع وهو قلمُ الردِّ على المبطلين[1] .

وأضاف الفخر الرازى إلى تأويل الآية ، أن فيها إشارةً إلى الأدلة السمعية والأحكام المكتوبة التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع ، بعد أن أشارت آية : « خلق الإنسان من علق » إلى الدلالة العقلية على كمال القدرة والحكمة والعلم . فكأنها إشارة إلى معرفة الربوبية ، والتعليم بالقلم إشارة إلى النبوة .

ومثله النيسابورى فى (تفسير غرائب القرآن)

وحيث لا مجال للإشاريات فى منهجنا ، نطمئن إلى أن الآية لفتتْ إلى سِرِّ القلم ، من حيث هو أداةُ الكتابة التى يُدون بها العلم ويحفظ وينتقل على امتداد الزمان والمكان وتتابع الأجيال . ويتسع المقام لكلِّ ما عده المفسرون من شرَف القلم وفوائد الكتابة ، على أن يظل للبيانِ القرآنى دلالته فى لفتةِ النبىِّ الأمى والعرب الأميين إلى جلال القلم ، آيةً من آيات الخالق الذى خلق الإنسان من علق ، وعلمه ما لم يكن يعلم . بما تعنى من اختصاص الإنسان دون سائر الكائنات بالقلم وكسبِ العِلْم . وهذا من الخصائص الإنسانية التى يضيف إليها الوحىُ من بعدِ ذلك ما يجلوها ويزيدها بياناً ، إذ يجعل العلمَ مناطَ تكريم آدم ، الإنسان الأول ، وحقِّه فى الخلافة فى الأرض ؛ ويسوق الآيات ويضرب الأمثال للذين يعلمون ، ويقصر خشيته تعالى على العلماء . . .

* * *

(١) التبيان فى أقسام القرآن ، ٢٠٧ : ٢١٢ ط حجازى ١٣٥٢ .

ومن المفسرين مَنْ قدَّر فى الآية مفعولا علَّمه الله ، قيل : هو « إدريس ، وقيل آدم لأنه أول من كتب بالقلم »[١] .

والنص لا يحتمل مثل هذا التحديد والتقييد ، بل هو الإنسان ، اسماً لعموم الجنس على إطلاقه ، علمه الله ما لم يعلم .

ولا داعى إلى أن نسأل عما علم اللهُ الإنسان ، بل حسبنا أنه تعالى علمه ما لم يعلم ، فيتسع الإطلاق لكلِّ ما كسب الإنسانُ ويكسب من العلم ، وهو الذى استأثر بشرف العلم الكسبى واختص به دون غيره من الكائنات .

دون تقييد بما رُوى عن « ابن عباس » من أنه قرأ الآية : « علم الخطَّ بالقلم » على وجه التفسير كما رجح أبو حيان[٢] .

* * *

ويمضى البيان القرآنى ، فى الردْع المحذِّر مما يتعرض له الإنسان من غرور بعلمه ومكانه بين المخلوقات :

« كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ » .

الطغيان تجاوز الحد ، وأكثر ما يُستعمل فى جبروت العتاة المستبدين . والاستغناء ضد الاحتياج . وقد سبق استقراء آيات الطغيان والغنى فى القرآن الكريم ، فى تفسير آيتى :

« اذهب إلى فرعون إنه طغى » من سورة النازعات .

« ووجَدك عائلا فأغنى » من سورة الضحى[٣] .

وكلا : للزجر والردع .

لكن من المفسرين من تأولها بمعنى « حقًّا » لأنه ليس قبلها ولا بعدها شىء يَتوجَّه إليه الردع[٤] .

---

(١) البحر المحيط : ٨/٩٣ .

(٢) البحر المحيط : ٨/٩٣ .

(٣) فى الجزء الأول ، من التفسير البيانى .

(٤) النيسابورى : تفسير غرائب القرآن ، على هامش الطبرى : ٢٠/١٢٦ .

وهذا من عجيب تأويلاتهم ، فالكلمة متلوةٌ مباشرة بطغيان الإنسان ، والآيات بعدها حافلة بما يتوجه إليه الردع والنذير .

وليس الطغيان عن استغراق فى حب المال والجاه كما تأوله بعض المفسرين ، ولكنه بصريح النص ، عن وهم الإنسان الاستغناء عن خالقه ، إذ تأخذه العزة بالإثم ، ويفتنه ما اختص به من شرف العلم الكسبى فيغتر ويطغى ، متجاوزاً قدرَه وموضعَه « أن رآه استغنى » عن خالقه .

وينسى أن مصيره إلى الخالق .

* * *

« إِنَّ إِلَى ربِّكَ الرُّجْعَى » .

والرجْعُ فى العربية : العودُ والردُّ . ورجْعُ الصوتِ تردُّدُه ، والمراجعةُ المعاودة .

والمعجميون يضعون الرجْعى مع الرجع والرجوع والمرجع والرجعان ، مصادرَ للفعل رجع .

وأكثر المفسرين على أن الرجعى هنا بمعنى الرجوع . قال أبو حيان : « الرجعى أى الرجوع ، مصدر على وزن فعلى ، الألف فيه للتأنيث »[1] .

وأحسب أن صيغة الرجعى ليس ملحوظاً فيها المصدرية ولا التأنيث ، بقدر ما يلحظ فيها إطلاقُ الرجوع إلى غايته القصوى .

ولم تأت صيغة الرجعى فى القرآن الكريم إلا فى هذه الآية ، ردعاً للإنسان المغتر عن طغيانه ، ونذيراً له بأن إلى ربك غايةَ مصيره ونهايةَ رُجعاه .

وبعد آية العلق : « إن إلى ربك الرجعى » تتالت الآيات المحكمات فيما نزل بعدها من الوحى ، منبهة ومنذرة بالمصير إلى الله سبحانه : إليه يرجع الأمر كله ، وإليه مرجعكم ومرجعهم ، وإليه تُرجَعون ويُرجَعونَ .

وفى سياق النذير جاءت آية الصافات بالجحيم مرجعاً للظالمين :

« ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم » ٦٨ .

وجاءت آية الفجر فى سياق البشرى للنفس المطمئنة :

(١) البحر المحيط : ٤٩٣/٧ .

« ارجعى إلى ربك راضيةً مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى »

ويُلحظ مع ما تؤذن به صيغةُ الرجعى من دلالة على غاية المرجع وآخر المصير ، ارتباطُها بخلقِ الإنسان من علق ، إيذاناً بأن إليه تعالى المبتدأ والمنتهى .

ومثله آية الليل : « وإن لنا لَلآخرةَ والأولى »

وتقديم : « إن إلى ربك » إن لنا » صريح الدلالة على القصر والاختصاص : إلى ربك ، لا إلى غيره . إن لنا ، لا لغيرنا .

• • •

ويتتابع النذير فى سورة العلق :

« أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى ، عَبْدًا إِذا صَلَّى ، أَرَأَيْت إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى ، أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى » .

وجمهرة المفسرين على أن هذه الآيات ، إلى آخر السورة ، نزلت فى « أبى جهل ابن هشام » كان ينهى محمداً ﷺ عن عبادة الله . وفى قول عن الحسن البصرى : هو أمية بن خلف ، كان ينهى سَلمان – الفارسى – عن الصلاة[1] .

ونقل « الطبرى » أن أبا جهل قال : واللاتِ والعُزّى لئن رأيتُ محمداً يصلى عند الكعبة ، لآتينَّه حتى أطأ على عنقه ولأعفرنَّ وجهه فى التراب . قيل فأتى أبو جهل رسولَ الله وهو يصلى ليطأ على رقبته فما لبث أن رجع عنه ونكص على عقبيه وقال : إن بينى وبينه خندقاً من نار .

ونقله الزمخشرى فى الكشاف . والنيسابورى فى تفسير غرائب القرآن[2] ، دون أن يعرضوا لما يَرِد على هذا ، من المشهور فى أن سورة العلق هى أول ما نزل من الوحى ، ولم يكن المصطفى ﷺ قد بدأ فى تبليغ رسالة ربه ، ومن ثَم لم يكن وُوجِهَ بالإيذاء والتّهديد . من طواغيت الوثنية .

لكن الفخر الرازى لم يفته أن يقف عند هذا ، وقد بدا له فيه وجهان :

الأول : أن الآيات الخمس الأولى من السورة هى التى نزلت فى أول الوحى ، ثم

(١) تفسير الطبرى جـ : ٣٠ ، أبو حيان : البحر المحيط : ٨/٤٩٣ والكشاف : جـ ٤ .

(٢) وانظر البحر المحيط لأبى حيان : ٨/٤٩٣ .

نزلت البقية فى أبى جهل بن هشام ، وأمر الرسول ﷺ بضمها إلى أول السورة .

والوجه الثانى : أن تُحمَل الآياتُ على عموم لفظها فى الظاهر ، وهو أن الإنسان ، جملة الإنسان ، خلقه الله من علق وأنعم عليه ، فإذا به يطغى ويتجاوز الحد فى المعاصى وينسى أن إلى ربك الرجعى ، فينهى عن عبادة الله ، وكان أوْلى به ، وقد أنعم عليه خالقه ، أن يكون على الهدى ويأمر بالتقوى .

وكلا الوجهين جائز .

فسياق الآيات فى السورة ، يُشعر بأنها نزلت بعد أن أبلغ المصطفى رسالةَ ربه وجهر بعبادته وصلاته فوُوجِه بالتكذيب ، ثم لا تمنع خصوصيةُ السببِ فى نزول هذه الآيات ، مِنْ حَمْلِها على عموم اللفظ كما قرر الأصوليون .

* * *

والنحاة من المفسرين ، وقفوا طويلاً عند « أرأيتَ » التى تكررت هنا ثلاث مرات فى آيات متتاليات ، دون أن يُصرِّح فيها بالمفعول الثانى للفعل « رأى » على ما تقتضى الصنعة الإعرابية .

وقد ذهب الزمخشرى فى (الكشاف) إلى أن الجملة الشرطية فى « أرأيت إن كذب وتولى » فى موضع المفعول الثانى لـ « أرأيت الذى ينهى» عبداً إذا صلى » وعلى هذا التأويل ، قرر أن « أرأيت » زائدة قبل الشرط : إن كذب .

أما جواب الشرط فيؤخذ من الآية بعده : ألم يعلم بأن الله يرى » وعلى هذا التأويل الذى تبدو فيه « أرأيت » فى الجملة الشرطية مقحَمة على السياق ، تمَّت للزمخشرى تسوية الصنعة بمفعول ثان ، ثم تركَنا نواجه مجيء جواب الشرط استفهاميًّا طلبيًّا غير مقترن بالفاء ، خلافاً لقواعدهم !

وقد رفض « أبو حيان » مذهب الزمخشرى ، دون أن يتخلص هو أيضاً من أغلال الصنعة النحوية . فلم يلتفت إلى ما فى قول الزمخشرى بزيادة « أرأيت » فى جملة الشرط من تكلف ينبو به السياق ويتمزق ، بل شغلته قواعد الصنعة ، فذكر أن المفعول الثانى لِـ « أرأيت » لا يكون إلا جملة استفهامية ، وهو كثير فى القرآن الكريم . ثم قال : « فتخرج هذه الآية على هذا القانون » .

وكذلك رفض مذهبَ الزمخشرى فى جعل « ألم يعلم بأن الله يرى » جواباً لشرطِ « إن كذب » محتكماً فى رفضه إلى القاعدة النحوية التى تقرر اقتران جواب الشرط بالفاء ، قال : « وأما تجويز الزمخشرى وقوع جملة الاستفهام جواباً للشرط بغير فاء ، فلا أعلم أحداً أجازه . بل نصوا على وجوب الفاء فى كل ما اقتضى طلباً بوجه ما ، ولا يجوز حذفها إلا فى ضرورة شعرية »[1] .

ونحتكم إلى البيان القرآنى فيما اختلفوا فيه ، فتلقانا ظاهرة أسلوبية لافتة إلى أن القرآن قلما يتعلق بذكر مفعول ثان ، فى الأسلوب الاستفهامى بـ « أرأيت » خطاباً للمفرد ، أو « أرأيتم » خطاباً للجمع . وإنما يستغنى عن هذا المفعول ، بتقريرٍ يلفت إلى موضع العبرة والنذير ، كما فى آيات :

« أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ »

(الماعون)

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ۝ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا »

(مريم ٧٧ ، ٧٨)

« أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً »

(الفرقان ٤٣)

« أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ »

(الجاثية ٢٣)

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلّٰى ۝ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى ۝ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۝ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفّٰى ۝ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »

(النجم ٣٣ – ٣٨)

وكلها آيات مكيات .

---

(١) البحر المحيط : ٨/٤٩٥ .

ومثلها السؤال التقريرى ، خطاباً للجمع ، فى آيات الواقعة :

« أفرأيتم ما تُمْنُون • أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون » ؟

« أفرأيتم ما تحرثون • أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » ؟

« أفرأيتم الماء الذى تشربون • أأنتم أنزلتموه من المُزْنِ أم نحن المُنزِلون • لو نشاء جعلناه أُجَاجًا فلولا تشكرون • أفرأيتم النارَ التى تُورون • أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟

ومعها آيات : يونس ٥٩ ، الشعراء ٧٥ ، فاطر ٤٠ ، الزمر ٣٨ ، النجم ١٩ الأحقاف ٤ .

هى إذن ظاهرة أسلوبية ، كان ينبغى أن تلفت إلى وجهٍ فى البيان العربى يستغنى عن المفعول الثانى لِـ « رأى » حين تقترن بهمزة الاستفهام فى الخطاب ، فلا نشغل بالتماس هذا المفعول الثانى خضوعاً للصنعة النحوية ، بل أولى منه أن نتدبر سرَّ هذه الظاهرة الأسلوبية التى لا تتخلف فى آيات العلق :

« أرأيت الذى يَنهى • عَبْدًا إذا صَلَّى • أرأيتَ إن كان على الهدى • أو أمر بالتقوى • أرأيت إن كذَّب وتولَّى • ألم يعلم بأن الله يرى » ؟

فلفتت إلى ما هو جدير بالرؤية والبصر والتدبر ، وأغنت عما تعلق به النحاة من مفعول ثان مقدَّر أو غيرِ مقدر ، يختلفون عليه .

والأمر كذلك فى جواب شرط • إن كذب وتولى •

إذا كانت قواعدهم تحتم ذكره أو تقديره ، ثم نواجه بما يخالف قاعدة نحوية أخرى تقضى باقتران الجواب الطلبى بالفاء .

فإن البيان القرآنى جدير بأن يلفتنا إلى وجه التجاوز عن ذكر جواب الشرط فى مثل هذا الأسلوب ، لتكون آية • ألم يعلم بأن الله يرى • هى موضع العبرة والبصر والتنبيه ، بما يغنى عن التعلق بجواب محذوف أو مقدر .

ومثله فى القرآن الكريم ، آيات الأنعام :

« قل أرأيتكم إن أتاكم عذَابُ اللهِ أو أتتكم الساعةُ أغيرَ اللهِ تَدعُون إن كنتم صادقين » ٤٠ .

« قل أرأيتم إن أخذ اللهُ سمعَكم وأبصاركم وختَم على قلوبِكم مَن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم به ، انظر كيف نُصرِّف الآياتِ ثم هم يَصدِفون ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذابُ الله بغتةً أو جهرة هل يهلك إلا القومُ الظالمون » ٤٦ ، ٤٧ .

والقصص : « قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم الليلَ سَرْمَداً إلى يومِ القيامة مَن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بضياءٍ أفَلا تسمعون ﴿ قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم النهارَ سرمداً إلى يوم القيامةَ مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بِلَيلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون » ٧١ ، ٧٢ .

ومثلها آيات : هود ٢٨ ، فصلت ٥٢ ، يونس ٥٠ . والاستفهام فيها فى موضع جواب الشرطْ ، غير مقترن بالفاء .

وننظر مع كل هذه الآيات ، آية هود ٨٨ :

« قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بيِّنةٍ من رَبِّى ورزقنى منه رزقًا حسنًا ، وما أريد أن أُخالِفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إنْ أريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ »

فيهدينا تدبر هذه الظاهرة الأسلوبية إلى أن البيان القرآنى يستغنى فيها عما تأوله النحاة ، بالسؤال اللافت إلى ما هو موضع بصر وعبرة . وبه أفهم قول « الراغب » فى (المفردات) : « رأى إذا عُدِّى إلى مفعولين اقتضى معنى العلم . ويجرى « أرأيت » مجرى : أخبرنى – ونقل عدداً من آياتها ثم قال : – كل ذلك فيه معنى التنبيه » .

وإنما أطلت الوقوف هنا ، قصداً إلى التنبيه إلى ما يلقانا فى ظواهر أسلوبية فى القرآن الكريم ، لم تأت على المقرر من قواعد النحاة وأحكام البلاغيين المدرسين ، فيشغلنا عن البيان العالى ، تسوية الصنعة النحوية أو البلاغية ، بالتأويل فيه والتقدير . . .

* * *

« كَلاَّ لَئِنْ لَمْ ينتَهِ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ ﴿ ناصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيهُ ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » .

obeikandi.com

السفعُ لغةً اللطمُ والجذب بشدة : سفع الطائرُ فريستَه لطمها بجناحيه ؛ وسفع الفارسُ بناصيةِ فرسه : جذبها بقوة وعنف . قال عمرو بن معديكرب ، رضى الله عنه :

قوم إذا كثر الصياح رأيتهم من بينِ مُلْجِمِ مُهْرِه أو سافعِ

وكثُر استعمالُ السفع فى لفح السموم تلطم وجهَ الملفوح ، والسوافع لوافحُ السموم ، ومنه سَفْعُ اللهب .

وقيل فى المجاز : سفع بناصيته ، بمعنى اجتذبها بعنفٍ قصدَ الإذلالِ والعقاب ، مع ملحظٍ من اقتدار السافع وقوته وغلبته .

والناصيةُ قصاصةُ الشعر فى مقدمة الرأس . ويُستغنَى بالناصيةِ مجازاً عن الوجه وكلِّ ما هو مقدم ، فيقال لأشرافِ القوم : نواصيهم .

ولم يأت السفع فى القرآن الكريم إلا فى آية العلق .

أما الناصية فجاءت مرة فى آية هود ، ٥٦ ، بمعنى التمكن والاقتدار والتحكم :

« إنى توكّلتُ على اللهِ ربى وربّكم ، ما مِنْ دابةٍ إلاَّ هوَ آخذٌ بناصيتِها إنَّ ربى على صِراطٍ مستقيم » .

وجاءت بصيغة الجمع فى آية الرَّحمن ٤١ :

« يُعرَفُ المجرمون بسيماهم فيؤخَذُ بالنواصِى والأقدام »

وفيها مع ملحظِ التمكنِ والتسلط والاقتدار ، دلالةُ الهوان والإذلال والعقاب للمأخوذ بنواصيهم .

ويُقوّى هذه الدلالةَ فى آية العلق ، مجىءُ السفع بالناصية ، بفعله المؤكّد مسنَداً إلى الله سبحانه ، وذلك أقصى الترهيب والوعيد لذلك المغتر المفتون الذى ينهى عبداً إذا صلى . والسفع بالناصية فيها ، يُحمَلُ على الجذب إلى النار ، وعلى لفح السعير . ووصفُ الناصية بكاذبة خاطئة ، يُفهَمُ الكذبُ والخطأ فى سياقها ، بدلالتهما الإسلامية الخاصة على الكفر والضلال ، وهى الدلالة الغالبة عليهما فى الاستعمال القرآنى .

والنادى فى العربية : مجتمَعُ القوم ، كالنديِّ والمنتدى . والنداء : الصوتُ الداعى إلى التجمُّع ، وتنادوا : نادى بعضهم بعضًا .

والندوة الجماعة والقوم يحضرون الندىَّ . وقد تطلق الندوة مجازًا على ما يدور بينهم فى النادى من حديث . ومنه دارُ الندوة بمكة ، كانت مجتمعَ قريش تقضى فيها جليلَ أمورها وتتحادث فى هامِّ شئونها .

كما يطلق النادى ويراد به القومُ المجتمعون فيه . على وجه المجاز المرسَلِ لعلاقة المحلية ، فى المصطلح البلاغى .

وأكثر ما تجىء المادة فى القرآن الكريم فى النداء مصدراً وفعلاً ، ماضياً ومضارعاً . وجاء التنادى فى آية القلم ٢١ :

« فتَنادَوا مُصْبِحِين ، أنِ اغْدُوا على حَرْثِكم إنْ كنتم صَارِمين » .

وسُمى يومُ الجمع يومَ التنادى فى آية غافر ٣٢ :

« ويا قومِ إنى أخافُ عليكم يومَ التنادِ ، يومَ تُولُّون مُدْبِرين ما لكم من اللهِ من عاصم ومَن يُضللِ اللهُ فما له مِنْ هادٍ » .

وجاء النادى بمعنى مجتمع القوم ، فى آية العنكبوت ٢٩ ، خطاباً لقوم لوط :

« أئنكم لَتَأتونَ الرجالَ وتقطعون السبيلَ وتأتون فى ناديكم المنكرَ » .

وبصيغة الندىِّ فى آية مريم ٧٣ :

« وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيناتٍ قال الذين كفروا للذين آمنوا أىُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نَدِيًّا » .

* * *

وقد ربط المفسرون آية العلق بما قالوه فى سبب نزولها ، فذكروا أن أبا جهل بن هشام حين توعد المصطفى عليه الصلاة والسلام أن يطأ عنقه إذا رآه يصلى فى الكعبة ، رد عليه المصطفى منذراً بعقاب من ربه . فقال أبو جهل : أيتوعدنى محمد ووالله ما بالوادى أعظمُ نادياً منى ؟

وعلى العموم ، من شأن الإنسان المغتر بجاهه وقوته ، فى مثل هذا المجتمع ، أن يمضى على غلوائه سادراً فى الضلال ، معتزًّا بقومه ، مُدِلاًّ بما له فى عشيرته من حِمى ومنعة .

وواضح أن النادى أطلق فى الآية ، مراداً به الجمعُ الذين يدعوهم هذا الضال المغرور ، وهم مظِنة أن يؤازروه وينصروه . لكنْ ماذا عسى أن يملكوا جميعاً له تجاه الزبانية يدعوها الخالق القاهر ، لتعذيب هذا المفتون ؟

« فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ » .

وقد اختلف اللغويون فى لفظ الزبانية ، فقيل إنه جمع لا واحد له . وقال أبو عبيدة : واحده زِبْنِية ، وقال الكسائى ، واحده زِبْنِيٌّ ، وكأنه نُسب إلى الزِّبْن ، كالإنسىِّ نسبة إلى الإنس . وقال الأخفش . واحد الزبانية زابن ، اسم فاعل من زبن ، بمعنى اشتد بطشه ، ومنه قول الشاعر :

وَمستعجِبٍ مما يَرى من أناتِنا ولو زَبَنَتْه الحربُ لم يترمرم

وقول « عتبة بن أبى سفيان ، والى مصر لمعاوية » : « وقد زَبَنَتْنا الحربُ وزَبَنَّاها . . . » .

وأيًّا ما كان أصل الكلمة ، فالعربية قد أطلقت الزبانية على مَردةِ الإنس والجِنّ . وفى المادة : زبانيا العقرب أى قرناها ، وفيهما السمُّ الزعاف .

ونُقلت الزبانية إلى المصطلح الدينى عَلَمًا على الملائكة والموكَّلين بعذاب الخاطئين فى جهنم . وبه تفهم آية العلق ، فى الزبانية يدعوها الخالق ويكِلُ إليها أمرَ تعذيب هذا الضال المغتر بجاهه وقوته ، المُدِلِّ بناديه .

ولم تحدد الآية صنيعَ الزبانية ، بل تركته على إطلاقه الرهيب ، يذهب فيه التصورُ كلّ مذهب .

* * *

« كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ » .

قال المفسرون إن هاء الضمير فى « لا تطعه » لأبى جهل بن هشام[1] .

وظاهر السياق عود الضمير على الذى « كذَّب وتولى » وكذلك الضمائر فى الآيتين قبلها : « كلا لئن لم ينته » ، « فليدعُ ناديه » .

---

(١) انظر تفسير : الطبرى ، والزمخشرى ، والرازى ، وأبى حيان .

والسجود فى العربية الخضوع ، ومنه فى القرآن الكريم : سجود الملائكة لآدم بأمر الله[1] ، وآية يوسف : « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا » ١٠٠ .

وكثر استعماله فى العبادة من قديم ، وفيما يتلو علينا القرآن من نبأ إبراهيم والبيت العتيق :

« وعَهِدنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أنْ طَهِّرا بيتىَ للطائفين والعاكفين والرُّكَّعِ السجود » (البقرة ١٢٥ ، ومعها آية الحج ٢٦)

ثم فى غشية الوثنية الجاهلية ، كان العرب يسجدون لأربابهم خضوعاً وتقرباً وزلفى ، حتى نسخ الإسلام بنوره ظلام الوثنية وأبطل السجود لغير الخالق ، وأخذ السجودُ دلالته الاصطلاحية على السجْدة فى الصلاة يتدرج فيها العابد من الوقوف بين يدى الله إلى الركوع ، ثم يكون السجودُ غايةَ الخشوع . ولعل تسمية دور العبادة الإسلامية بالمساجدِ ، ملحوظ فيها ما فى السجود من غاية الخشوع . واختص البيتُ العتيق باسم المسجدِ الحرام ، إذ كان أوَّلَ بيتٍ عُبِد فيه الله ، وقد جاء بهذا الاسم فى خمس عشرة آية من القرآن الكريم . . . ومعه المسجد الأقصى فى آية الإسراء .

وتخصيص السجود بالذكر فى آية العلق ، يقبل تأويله بالسجود فى الصلاة كما ذهب بعض المفسرين ، مع احتفاظه بدلالته الأصلية على غاية الخشوع ، استئناسًا بما فى القرآن الكريم من آياتٍ تخص السجود بالذكر فى وصف عباد الله القانتين :

« سِيماهم فى وجوههم من أثر السجود » (الفتح ٢٩)

« أمَّنْ هو قانِتٌ آناء الليلِ ساجدًا وقائمًا يَحذَرُ الآخرةَ ويرجو رحمةَ ربِّه » (الزمر ٩)

« إن الذين أوتوا العلمَ من قَبلِه إذا يُتلَى عليهم يَخِرُّون للأذقانِ سُجَّدًا » (الإسراء ١٠٧)

« . . . إذا تُتلَى عليهم آياتُ الرحمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وبُكِيًّا » (مريم ٥٨)

---

(١) فى آيات : البقرة ٣٤ ، الأعراف ١١ ، الإسراء ٦١ ، الحجر ٣٠ ، الكهف ٥٠ ، طه ١١٦ ، ص ٧٣ .

« والذين يَبِيتون لِربِّهم سُجَّدًا وقياما » (الفرقان ٦٤)

« إنما يؤمنُ بآياتِنا الذين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سُجَّدًا وَسبَّحوا بحمدِ ربِّهم وهم لا يستكبرون » (السجدة ١٥)

« الذى يراك حين تقوم * وتَقَلُّبَكَ فى الساجدين » (الشعراء ٢١٩)

« يتلون آيات اللهِ آناءَ الليلِ وهم يسجدون » (آل عمران ١١٣)

ومعها آيات : (الأعراف ٢٠٦ ، الشعراء ٤٦ ، النحل ٤٩ ، النجم ٦٢)

وأمرُ الرسول بالسجود فى آية العلق ، نظيره ما فى آيات :

« فسبِّح بحمْدِ ربِّك وكُنْ من الساجدين » (الحجر ٩٨)

« فاسجُدوا للهِ واعبدوا » (النجم ٦٢)

« ومن الليلِ فاسجُدْ له وسبِّحْه ليلاً طويلاً » (الإنسان ٢٦)

ويأتى الاقتراب قرينَ السجود فى ختام الآية :

« وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » .

ولا نطمئن إلى تفسير الاقتراب هنا بالتقرُّب كما ذهب « أبو حيان » ، بل نؤثر أن تحتفظ الكلمة بدلالتها على الدنو والقربى من الله تعالى ، وإنَّ أقربَ ما يكون العبدُ إلى ربه وهو ساجد .

* * *

وإذ يأخذ الاقترابُ من اللهِ مكانَه ختامًا للآية ، وليس بعد القربى من الخالق غايةٌ يطمح إليها العابد الساجد .

يأخذ سجودُ المصطفى هنا ، موضعَه المهيب خشوعاً لجلال الخالق ، فيصدَعُ خُيلاءَ المفتونين وكبرياء المزهُوّين ، ويكبح غرور الإنسان الذى خلقه الله من علق ، وعلمه بالقلم ما لم يعلم ، فأطغاه وَهْمُ الاستغناءِ عن خالقه ، سبحانه له الآخرة والأولى :

« كلا إن الإنسان لَيطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربِّكَ الرُّجْعى » .

صدق الله العظيم